إشراقات الريادة الشعرية
عند محمد الهراوي؛ قراءة في ديوان "سمير الأطفال"

د. كمال اللهيب *

مقدمة:

يتقاطع عمل الممارسة النقدية مع الأزمنة الثلاثة؛ الحاضر والمستقبل والماضي، فمع الحاضر تراهن الممارسة النقدية على استيعاب الظاهرة الأدبية استيعابًا عميقًا يكشف خصوصيتها وطبيعة تفاعلها مع ما يحيط بها من متغيرات ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية،... إلخ، ومع المستقبل تراهن على التنبُّؤ بآفاق جمالية جديدة تتجاوز الجماليات التي استنفدت طاقتها الجمالية، ومع الماضي عندما تتناول المشاريع والظواهر الا بُدَّاعية السالفة بالتحليل والوقوف على أهميتها التاريخة أو الأدبية، والكشف عن أثرها الممتد إلى لحظتنا المعاصرة.

وسوف تتناول ورقتُنا لحظة إشراق المشروع الشعري للشاعر الرائد محمد الهرَّاوي، والذي يُعدُّ المشروع الشعري العربي الأول في اكتماله الإبداعي وتخصُّص صاحبه في الكتابة للأطفال، وسنتناول بالتحديد نقطة بداية ذلك المشروع المتمثلة في ديوان "سمير الأطفال" الصادر عام 1922؛ وذلك لما له من أهمية تاريخية تتمثل في بداية التخصص في الكتابة للأطفال، وأهمية فنية تتمثل فيما ارتكز عليه من أُسُس ثقافية وأخلاقية وجمالية.

محمد الهـَراوي (1885 - 1939):

من رواد مرحلة التأليف خصيصًا للأطفال، وكان لشوقي السبق الزمني في تلك المرحلة، ولكن مشروع شوقي للأطفال لم يستمر وتوقف بعد حين، ويكفيه شرفًا أنه قد فتح باب التأليف خصيصًا للأطفال، ليأتي بعده محمد الهَرَّاوي الذي يكرس مشروعه الشعري للكتابة للأطفال حتى وافتهُ المنِيَّة، ويصبح صاحب أول مشروع شعري للأطفال توافرت له عوامل الاكتمال

* ناقد وباحث متخصص في أدب الأطفال، مصر.

والاستمرارية، وتنوع الموضوعات والاتجاهات، والصدور عن مستويات متعددة تراعي احتياجات وقدرات مراحل الطفولة المختلفة، ولعل هذا ما دعا إلى اطلاق لقب أمير شعر الطفولة على الهراوي، وإن كنا لا نحبِّذ كثيرًا اطلاق الألقاب التي تتضمن أحكامًا قيمية؛ لأن من شأنها التكريس ولو عن دون قصد لسلطة الماضي على الحاضر، ولن يقلل ذلك من الأهمية التاريخية والفنية لمشروع الهراوي، وإن كان لا بُدَّ من لقب نطلقه على الهراوي، فليكن ذلك اللقب مُستمدًا من أمرٍ لا خلاف عليه، وهو ريادته التاريخية لشعر ومسرح الأطفال.

وذكر خير الدين الزركلي في أعلامه أن الهراوي: شاعر مصري، انفرد بنوع من النَّظْم السهل، ابتكره للأطفال يحفظونه ويتناشدونه في مدارسهم وبيوتهم، وُلِد في قرية "هِرِيَّة رَزَنَة" وتعلَّم بالقاهرة ثم بالإسكندرية، وأنشأ "مجلة الرسول" وهو طالب، ووُظِّف بوزارة المعارف سنة 1902 – 1911 ونُقل رئيسًا للحسابات بدار الكتب بالقاهرة، فظل في عمله هذا إلى أن تُوفي، له كُتَيْبات لطيفة منها السمير الصغير، والطفل الجديد، وأغاني الأطفال، ومسرحيات الأطفال، وسمير الأطفال، وأنباء الرسل، وديوان شعره، وقصص الأطفال، وله أناشيد نَظَمها للحركة الوطنية بمصر في إبَّانها[1].

وبمقاييس عصره يمكن القول أن الهراوي قد أدى دوره التاريخي على أكمل ما يكون، فقد واجه النظرة المتدنية – حينها – نحو أدب الأطفال، وقدم أول مشروع شعري عربي متخصص للأطفال، وظل وفيًا لمشروعه يعمل عليه حتى وافته المنية، ورثاه إبراهيم ناجي قائلًا:

لست أرثيكَ أيُرثى خالــدُ ... في رحاب الخُلــْد موفـور الجزاء
كيف أرثيك أيرثى فاضل ... عاش بالخيرات موصول الدعاء
إنما الدنيا هي الخـــــير على ... قلـة الخـير وقحـــط العظمـــاء
إنما الدنيـا فتى عاش لـــــكم ... باذلًا من قـوته حـــتى الفَنـــاء
فإذا مات فقد عاش بكـم ... فهـــــو بالذكـرى جديرٌ بالبقاء [2]

ملامح الظرف التاريخي وتشكيل مشروع الهراوي:

تكشف الملامح العامة للخطاب الشعري عند الهراوي عن استيعابه العميق لمتغيرات عصره ووعيه بطبيعة ظروف وطنه واحتياجاته الآنيَّة وتطلعاته المستقبلية، وقد اجتمع عند لحظة ظهور مشروعه الشعري في بدايات القرن العشرين عددٌ من المؤثرات الثقافية والسياسية والاجتماعية،

المحلية والدولية، التي كان لها كبير الأثر في تشكيل خطابه الشعري، فإذا رصدنا أهم متغيرات الظرف التاريخي القريبة زمنيًا من لحظة صدور ديوان سمير الأطفال في عام 1922، نجد أن العالم كان قد خرج من الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) وما زال يحاول الاستشفاء من أهوالها، وكانت حركات التعليم والترجمة التي بدأت في القرن التاسع عشر بدأت تُؤتي ثمارها في مصر والعالم العربي، وثمَّة حراك ثقافي وفكري واجتماعي وسياسي، يتنامى مع دعوات التحرُّر الوطني وتحرير المرأة، وبدأت الجامعة الجامعة المصرية التي تأسَّست في عام 1908 تُسهم في تحريك المياه الراكدة في الواقع الفكري والثقافي، كما كان ظهور المشروع الشعري للهراوي على مقربة زمنية من ظهور مشاريع إبداعية رائدة في عددٍ من الفنون مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرح والسينما، وكانت مصر تقع تحت الاحتلال الإنجليزي والسيطرة العثمانية، وكان ثمة حدث له كبير الأثر على مسيرة الحركة الوطنية بصفة عامة وعلى مشروع الهراوي بصفة خاصة وهو ثورة 1919، وفي خِضَمِّ تلك المتغيرات جاء مشروع الهراوي، الذي استوعب ظروف وطنه الراهنة وتطلُّعاته نحو المستقبل، وآثر أن يمارس دوره الريادي في إعداد الجيل الناشئ ليصبح ذخيرة الوطن في مستقبله.

التعليم طوق النجاة:

كانت الحملة الفرنسية قد أحدثت صدمة ثقافية أفاقت الشعب المصري من العزلة الفكرية والثقافية التي فرضها الأتراك العثمانيون على العالم العربي، وبات من المسلَّمات التي لا تقبل الشك لدى روَّاد النهضة العربية من المفكرين والمبدعين أن التعليم هو الشرط الأول للنهضة المأمولة، فلم يكن التعليم مطلبًا فرديًا يقتصر عائده على الارتقاء بالوضع الاجتماعي للفرد، بل كان بمثابة طوق النجاة المأمول لتحرير الوطن؛ ولذا فقصائد الهراوي التي تكرِّس لأهمية التعليم نجدها تمتزج بالحس الوطني، ففي نشيد "فتيات المدارس" الذي يجري الخطاب الشعري فيه على لسان فتيات المدارس، ويبدأ مطلعه تلك البداية الحماسية:

هيـَّا بنـا، هيَّا بنـا نســـعى لإدارك المنى
بمدارس فُتحت لنـا فيها فتوح العالمين[3]

نجد الهراوي يخاطب الفتاة التي تذهب إلى المدرسة مُذكِّرًا إيَّاها بمصريتها:

يا بنتَ مصرَ تَيقَّظي وخُذي النصائح واحفظي[4]

ومن النقاط المضيئة في مشروع الهراوي إيمانه المبكر بالمساواة بين الجنسين، فقد أدرك بنظرة ثاقبة احتياج الوطن الناهض إلى تكاتُف أبنائه وبناته وتعاونهم معًا:

إن البنين مع البنات رُوحـانِ في جسـم الحياة
فيَدُ الفتى ويد الفتاة تتعاونان على الشئون[5]

ولما كان على أبناء الوطن حقوقٌ واجبة، فلهم بالمقابل حقوقٌ متساوية، ومن أهم تلك الحقوق حق التعليم، وكان الهراوي يكرس لأهمية التعليم بصفة عامة، ويشدد على تعليم الفتيات بصفة خاصة، متجاوزًا النظرة التقليدية البالية – حينها – التي كانت ترى أن البنت ينتهي أمرها إلى الزواج؛ وبالتالي فلا طائل من تعليمها، كأنه كان يدرك برؤية مستقبلية أن تحرير المرأة عن طريق التعليم يُسهم في تحرير الوطن؛ ولذا نجده يجري خطابه الشعري في غير قصيدة على لسان الفتاة المصرية، تلك التي لزمت الصمت قرونًا كثيرة، كما في قصيدة "طفلة تتوجه إلى المدرسة" التي يرسم فيها صورة نموذجية للتلميذة، منذ استيقاظها مبكرًا في الصباح، إلى وصولها المدرسة وتحصيلها العلوم، وهو يقدم تلك الصورة بطريقة مُحبَّبة تحفز الطفلة القارئة إلى الاحتذاء به، وتجعل الأبوين يتوقان لرؤية ابنتهما في تلك الصورة المشرقة:

أقوم في الصباح قبل الشمس أغسل وجهي ويدي ورأسي
وبعد أن أخلـــع ثوبَ النـــومِ ألبـــس ثوبـــًا غيـره لليـوم
وأغتـــدي وفي يـــدي كتـــابي نظيفـــةَ الحذاءِ والثيـاب
قاصـــدةً مَدْرَســـتي مُبكِّـــرة ساعـــيةً راضـــيةً مستبـشرة
أهدي إلى صواحبي سلامي وأدخـــلُ المكتبَ بانتظـــام
وأكتـــبُ الدروسَ بالإتقـــان وأحفـــظُ العلـوم بالإمعـــان
كذاك فعل الطفلة الحميدة لكي تعيش عيشة سعيدة[6]

العلم والعمل:

أدرك الهراوي احتياج الوطن إلى العلم المقترن بالعمل؛ فأكَّد في قصائدة أهميةَ العلم بمفهومه الحديث، العلم الذي يقترن بالعمل والصناعة والإنتاج والذي ينتج ثمارًا ملموسة تصبُّ في خدمة الوطن، وتُلحقه بركب الأمم المتقدمة؛ ولذا فإن اقتران قيمتَي العلم والعمل من التيمات المتكررة في أشعاره، ففي "نشيد فتيات المدرسة" نجده يقول:

فالعلمُ نورٌ والعمل كَنْزٌ بأيدِي العاملين[7]

ولا يستثني الهراوي من أبناء الوطن فتًى أو فتاة، في اقتران العلم والعمل، فيخاطب كُلًا بما يناسبه من أدوات، ففي قصيدة "يراعتي وإبرتي" يجعل الخطاب الشعري يجري على لسان الفتاة:

يراعـتي قـد أكسبـتني الأدبَا وإبـرتي قـد ألبستـني القصبـَا
فهـذه للـعـلـم والآداب وتلك للقميـص والجلباب
صنعهما في الثوب أو في الطرس تحلية للجسـم أو للنفـس
غنيـت باثنتـين عمَّا يُقتـنى يَرَاعَـتـي وإبرتي همـا الغِنَى
يراعـتـي تُطـرِّز الكتـابَا وإبـرتـي تـُطـرِّز الثيـابـا[8]

كما يتغنى على لسان الفتى بقيمتَي العلم والعمل، مؤكدًا أهميتهما وعدم تعارضهما قائلًا:

أنا في الصبـح تلمـيذٌ وبعد الظهر نجَّـار
فَلِي قلـمٌ وقِرْطـاسٌ وأزميـلٌ ومنشـار
وعلمي إن يكن شـرفًا فما في صنعتي عـار
فللعلـماء مـرتـبـةٌ ولـلصُّنـَّاع مـقـدار

صورة الفتاة عند الهراوي:

عاصر الهراوي أحداث ثورة 1919، وشاهد خروج طلبة وطالبات المدارس ومشاركتهم في مظاهراتها، والتي واكبت دعوات تحرير الوطن مع دعوات تحرير المرأة، ورأى عن كثب المرأة المصرية تنزل أرض الشارع وتقف إلى جانب الرجل تشاركه الهتاف ضد المحتل، وتطالب بالحرية لوطنها؛ بما ينمُّ عما لديها من وعي سياسي وحِسّ وطني عميق، وبتحليل صورة الفتاة كما صوَّرها الهراوي في خطابه الشعري، نجد دلائل كثيرة على أنه استمدَّ كثيرًا من ملامحها – بطريقة شعورية أو لاشعورية – من تلك الصورة المشرقة للمرأة المصرية كما تجسدت أمامه في ثورة 1919، والتي خلبته وجدانيًا وفكريًا فآثر أن يُجِّسدها في خطابه الشعري كصورة نموذجية يريد للفتاة الناشئة أن تصير إليها.

ومن أهم الملامح التي استمدَّها الهراوي من المرأة المصرية المشارِكة في ثورة 1919، وجعلها

ركيزة بناء صوره الصورة النموذجية للفتاة في أشعاره، أنها متعلمة، وتمتلك وعيًا سياسيًا وحِسًا وطنيًا يُمكِّنها من المشاركة الإيجابية في قضايا وطنها، وهي تهتف بحب الوطن دون خجل، وملتزمة بضوابط مجتمعها وأخلاقياته الحميدة، وتحرز النجاح داخل وخارج بيتها، وفيما يلي استعراض سريع لتلك الملامح.

أ: الفتاة المتعلمة

كان لإيمان الهراوي بضرورة تعليم الفتيات، أثره على تشكيل ملامح خطابه الشعري، تمثَّل في تواتر نمط الفتاة "التلميذة" في غير قصيدة؛ مثل "نشيد فتيات المدارس"، و"صورة تلميذة"، و"طفلة تتوجه إلى المدرسة"، و"يراعتي وإبرتي"، و"فاطمة خطيبة"، و"مَثُبَنة التلميذة"[9]، ويقدم الهراوي في قصيدة "فاطمة خطيبة" صورة نموذجية للفتاة المتعلمة، التي تحقق الغاية من التعليم وهو الوصول إلى درجة من الوعي والحس الوطني يُمكِّنها من مؤازرة وطنها، ففاطمة التي تتحدث عنها القصيدة (وكان الهراوي يستخدم أسماء أبنائه في قصائده) بعد أن ذاكرت وحصَّلت المعارف الكثيرة، ينطلق لسانها بالمعرفة التي تكشف عن وعيها باحتياجات وطنها في لحظة حاضره وتطلُّعاته المستقبلية:

فاطـمة تلقـــي على ... أسمـــاعنا محاضـره
حـديـثـهـا تسـوقـُه ... كـأنـَّه مُسـامَره
قد ذاكرت وأظهرت ... نـتيجـة المـذاكـره
ظلـت تقـصُّ سِيَرًا ... عن العصـور الغـابره
تعقـد بين عهـدها ... وعـهـدنا مناظـره
تقـول: مصـر أُمُّنا ... تحـتـاج للمـؤازره
والنيـل لا ننسى له ... على المـدى مآثـره
بالعـلم نعلـو بهما ... إلى النجوم الزاهرة[10]

ويستكمل الهراوي بناء نموذجه المثالي للفتاة التي يعدُّها ذخيرة لمستقبل وطنها، فهي التي تحقق التوازن وتحرز النجاح في الداخل والخارج، ذلك في قصيدة "فاطمة في المطبخ":

فاطمـة في بيتها تدبـر ... ولم تكن عن درسها تقـصر
خير فتاة تُحسن الأمورا ... من تجمع التعليم والتدبيرا[11]

ب: الوعي الوطني لدى الفتاة

من أبرز السمات الأسلوبية المتكررة الدالة في قصائد الهراوي على رغبته في تحفيز الوعي الوطني لدى الفتاة المصرية، مخاطبته إياها مُؤكِّدًا مصريَّتَها وانتماءَها الوطني، فيخاطبها في غير موضعٍ من قصائدة قائلًا:

يا بنتَ مصرَ تيقَّظي وخُذي النصائح واحفظي[12]

واطلبي عنـــد الثُّـــريا يابْنـــةَ النيـــلِ مَقـــامـــا[13]

أنتِ يا عِـــزَّ حِمـــاكِ حَمِـــدَ النيـــلُ سُـــــراك[14]

يا فتاةَ النيلِ هـــــاتي من صنيـــع المكْـــــرُمات[15]

يابْنةَ المجدين سودي بقـــــديمٍ وجـــــديـــــد[16]

وكان الهراوي يعمَدُ إلى غرس الشعور الوطني في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم، بتوظيف حيَل فنية غير مباشرة، فيتناول على سبيل المثال ألعاب الطفولة المحببة للأطفال كاللعب بالكرة أو لعبة نط الحبل، ويبدأ بها القصيدة ثم ما يلبث أن يتحول بخطابه الشعري شيئًا فشيئًا فيجعله خطابًا نابضًا بحب الوطن يُجريه على لسان الطفل بضمير المتكلم، ففي "أنشودة لعب الكرة"، يجعل الهراوي الفتاة تلعب مع كرتها، وتدللها وتعقد معها جوًّا من الأُلْفة، يعقبه حوارٌ توجهه الفتاة إلى لُعبتها الأثيرة وتوصيها بما عليها فعله:

أنت الكُـرَة كـــالسُّـــكَّرة

هذي يدي هيَّا اصعـــدي

دُوري هـــنا عنـــدي أنا

عني خُـــذي وبي احتذِي[17]

ويجري الهراوي على لسان الفتاة النصائح لكرتها الحبيبة؛ ليعطي بذلك تطبيقًا إبداعيًا مبكرًا في غرس القيَم الأخلاقية والاجتماعية والوطنية في وجدان الطفل بأسلوب فني غير مباشر، ثم يتحول بالخطاب ليغرس قيم الانتماء وحب الوطن، عندما تطلب الفتاة من كُرَتها أن تردد معها تلك كلماتها التي تقطُر حُبًا لمصر، في إيقاع سريع حماسي قوي رنان يحاكي إيقاع هتاف التظاهرات في ثورة 1919، فتهتف الفتاة وهي تطلب من كرتها أن تردد معها:

كرتي اسمعي قـــولي معي:
مصرُ اسلمي مصرُ اغنمي
يا أُمَّـــــــنا نِلْـــتِ المـــنى
يحيا الوطـــن طـــول الزمن
سامي العلم بين الأمم[18]

وفي "أنشودة نَطّ الحبل" يستعير الهراوي إحدى الصورة الإيقاعية المألوفة في المظاهرات الوطنية كما تجلت في ثورة 1919؛ ليبني عليها أنشودته، وتتمثل الصورة الإيقاعية في مجموعة من الهتافات المتتابعة وعقب كل هتاف يتم تكرار عبارة "لازمة" ترددها الجموع، في تناغُمٍ بين الفرد والمجموع، فنجد الهتافات تتمثل في صدر كل بيت؛ أي شطره الأول والذي يمثل صوت الفرد، ويعقبه العبارة "اللازمة" التي تتمثل في الشطر الثاني؛ أي عَجُز البيت والتي تمثل ترديد الجموع، والعبارة اللازمة هنا هي عبارة "فوق الحبل" التي تتكرر بعد الشطر الأول من كل بيت:

بنتَ النيل فوق الحبل
فخرَ الجيل " "
حيِّ العلما فوق الحبل
حيِّ الهـــرما " "
حيِّ مصـــــرا فوق الحبل
مصر الكبرى " "
مصر العليا فوق الحبل
أمَّ الدنـــيا " "
مصـــر الحرة فوق الحبل
أَلفَـــــيْ مَرَّة " "[19]

وقصائد الهراوي تؤكد أنه لم يكن يتعامل مع الطفل بوصفه كائنًا حبيسًا في عالمٍ مُنبَتٍّ الصِّلَة عن واقعه، وإنما كان يتعامل مع الطفولة بوصفها مرحلة لها خصوصيتها في غرس سمات الشخصية النموذجية التي يتطلب الوطن أن يصير أبناؤه إليها.

الأساس الأخلاقي:

كان الهراوي وهو يؤسس مشروعه الشعري للأطفال على وعي بالأساس الأخلاقي والتربوي لأدب الأطفال، فتتواتر الأهداف الأخلاقية عنده في قصائده بل ويُفرد قصائد بأكملها للهدف الأخلاقي، كما في قصيدة "آداب البنت في الطريق"، فالهراوي يريد أن يكمل بناء الصورة النموذجية للفتاة التي خرجت تطلب العلم، وتطالب بحُريَّة وطنها مع التزامها بالأخلاق الحميدة:

إذا ما سرتِ في الطرقات فامشي ... على سنن الكمال والاحتشام
ولا تتلفـــتي يُمنـــى ويُســـرى ... وسيري في الطريق إلى الأمـام
فإما تبصـــري فيه زحـــامـا ... فلا يلفتك شيءٌ في الزحـــام
ومُـرِّي بـين إســراع ومـهـل ... وصدي السمع عن لغو الكلام
كذلك فاسلكي في كل سير ... سبيل الجد يا بنتَ الكـــرام[20]

الهوية المصرية:

شهدت بدايات القرن العشرين حراكًا ثقافيًا وتفاعلًا بين اتجاهات متعددة المشارب، حاول كل منها تقديم إجابته عن سؤال النهضة المنشودة، وكانت الإجابة تتراوح بين العودة إلى التراث، أو الانفتاح على النموذج الغربي، وكان الهراوي انطلاقًا من دوره التاريخي التأسيسي لأدب الأطفال، مطالبًا بتحديد الهُويَّة التي يريد للناشئة أن يصيروا إليها، ونجد أنه في قصائده لم يغفل الأبعاد المصرية الفرعونية أو العربية والإسلامية للهوية المصرية، ومن خلال قصائد مثل "دار الآثار العربية"، و"المحمَل ورَكْبه"، و"دار الآثار المصرية"، و"حفلة وفاء النيل"، و"الأهرام"، و"أبي الهول"، نجده يجمع الخيوط التي تتشكَّل منها الهوية المصرية، ففي قصيدة "دار الآثار العربية" يتضح انتماؤه العربي الإسلامي وفخره بمآثر العرب وآثارهم التي يقول في وصفها:

في مصر دارٌ حوت ما خلَّف العرب ... يلوح فيها لعين الناظر العجب
فمن محاريبَ زانَ النقشُ حليتها ... إلى منابرَ كَمْ رَنَّت بها الخُطَب
ومن سيوفٍ إلى دِرْعٍ إلى زَرَد ... إلى سهامٍ إلى ما يجمع اليَلَب
ومن مصابيح لولا أنها خزف ... ما خالها الطرف إلَّا أنها شُهُب
ومن دَواةٍ إلى طِرْسٍ إلى قلم ... إلى صحافٍ عليها يسطعُ الذهب
فثَمَّ آثـارهـم تـزهي بجـدَّتهـا ... وثَمَّ أزياؤهم رغـم البِلَى قُشُبُ
كذاك تنطق بالإعجاز آيتهم ... ما قورن الناسُ حتى فاقتِ العَربُ[21]

وفي قصيدة "دار الآثار المصرية" يستشعر الفخر بآثار بالحضارة المصرية القديمة، التي لا زالت الآثار شاهدة على عظمتها التي فاقت كل وصف:

لئن ماتوا لقد تركت يداهم على آثارهم معنى الحياة[22]

وفي قصيدة "أبي الهول" يعقد أواصر الصلة بين المصري المعاصر وأجداده من قدماء المصريين، فهم آباؤنا مَنْ صنعوا هذه العجائب التي بقيت على مدى الزمن، يقول:

قـد شـــاده آبـــاؤنا عن خبرةٍ ودرسِ
الجسم جسم سبع والرأس رأس إنسِ
الرأس عنوان الحجى والجسـم رمـز البأس[23]

ويعرض لمعجزة بناء الأهرام، ليوثق الرابطة بين حاضر المصري وماضيه، ومكررًا تيمته الأثيرة في ربط العلم والعمل قائلًا في وصف الأهرام:

كانت نواويس الملو ك في العصور الأُوَل
واليوم صارت آية تُضرب عند المثل
تدل أن مصر أمُّ العلم أمُّ العمل[24]

تدشين تقاليد الاتجاه العلمي في أدب الأطفال:

من أهم مرتكزات الاتجاه العلمي في أدب الأطفال، أولًا بناء وترسيخ الاتجاهات والقيَم العلمية الإيجابية في وعي الأطفال ووجدانهم، وثانيًا وظيفة التثقيف العلمي عن طريق استحضار مُستجدَّات العلم من مخترعات وأفكار ومعارف... إلخ توظيفًا فنيًا داخل البنية الفنية للعمل المقدم إلى الطفل، وتلك الوظائف نطالعها في غير قصيدة في "سمير الأطفال"، قدم فيها الهراوي للأطفال طائفةً من ثمار العلم الحديث في عصره، مثل التليفون والترام والباخرة والطائرة و(الحاكي) الفونوجراف، وآلة التصوير (فوتوجراف)، ثم أعقبها بقصيدة "آيات العلم" التي تكرس لتأكيد قيمة العلم، وضرورته للفرد وللوطن في الحياة المعاصرة، ويمكننا القول إن الهراوي بتلك القصائد كان يدشن التقاليد الأولى للاتجاه العلمي في الأدب العربي للأطفال.

وفي قصائده التي كان يستحضر فيها إنجازات العلم الحديث وثماره، كان يقدم كل مُنجَز بطريقة مبسطة تُبرز أهميته ووظيفته، مع التأكيد على أنه لولا العلم لما توصل الإنسان لهذا الاختراع، فيقول في وصف المِسَرَّة (التليفون):

مِسَـرَّةٌ في عُـلبـة صغيرة في الحجم
تدير فيها جرس يــرن عـــند الأم
تطلب من تطلبه من عندها بالرقم
تنـقل مـا تـقـوله بسلكها الأصَم
تسعف عند حاجةٍ أو حادثٍ مـهـم
فـــهـــذه مـعـجزة من معجزات العلم[25]

وفي قصيدة "آيات العلم" يضع الهراوي جماع رؤيته حول ضرورة العلم وقيمته، وتُعد تلك القصيدة من أوليات القصائد التي نجدها تُكرِّس لقيمة العلم في أدب الأطفال العربي، يقول في مطلعها:

رَبُّوا بَنِيكم، علِّموهم، هذِّبـوا فتيـاتِكم فالعلمُ خَيرُ قِـــوَامِ
والعلمُ مالُ المعدَمِين إذا هم خرجوا إلى الدنيا بغير حُطامِ[26]

فالعلم حق للفتيان والفتيات على السواء، وهو سبيل النهضة المأمولة، والمعقودة على سواعد أبناء الوطن، وهو سبب نهضة البلدان المتقدمة في الزمن الحالي، والحياة الحديثة كما يتصورها الهراوي صارت حربًا، وسلاح المرء فيها هو العلم:

وأخو الجهالة في الحيـــاة كـــأنَّه ساعٍ إلى حربٍ بغير حُسامِ
والجهـــلُ يخفضُ أُمَّـــةً ويذلُّـــها والعلـــمُ يرفعُها أجَـــلَّ مَقامِ
انظر إلى الأقوام كيف سَمَتْ بهم تلك العلومُ إلى المحل السامِي[27]

ثم يؤكد تكريسه لأهمية العلم الحديث ويستعرض كيف مكَّن العلم الحديث الأمم المتقدمة من السيطرة على الطبيعة، والإتيان بمخترعات أشبه ما تكون بالخيال:

من راكبٍ متنَ الرياح كأنَّه ملك يُصرِّف أمرها بزمام
أو مُحدِثٍ بالكهرباء عجائبًا أو غائصٍ بالفُلك أو عوَّام
أو مبدعٍ قطر البخار ومنشئٍ سفن البحار تلوح كالأعلام
أو مُرسلٍ وحيَ الهواء ومُنطقٍ صُمَّ الجماد بأحرفٍ وكلام
هذا هو العلم الحديث فأقبِلُوا زُمَرًا عليه يا بني الأهرام[28]

ولا يغيب على الهراوي في ختام القصيدة أن يحثَّ بني وطنه على الإقبال على العلم الحديث، مُذكِّرًا إياهم بتاريخهم العظيم وبانتسابهم إلى بنُاةِ الأهرام.

خاتمة:

حاولنا الوقوف على بعض الملامح الثقافية والفنية عند لحظة البداية في مشروع الشاعر الرائد محمد الهراوي، كما تجلَّت في ديوان "سمير الأطفال" الذي كُتبت قصائدة منذ قُرَابة مائة عام، ولا ندَّعي أننا قد أحطنا بكل ملامح تلك البداية الرائدة، شديدة الحداثة بمقاييس عصرها، فضلًا عن الإلمام بملامح المشروع الإبداعي للهراوي في مجمله، ومن أبرز ما نستخلصه من تلك الوقفة الموجزة ما يلي:

- ارتبط مشروع الهراوي الشعري ارتباطًا عضويًا بمتغيرات السياق الوطني والسياسي والاجتماعي والثقافي في عصره.
- لم يتعامل الهراوي مع الطفل بوصفه كائنًا منعزلًا عن واقعه، فجعل يؤكد ارتباطَه بوطنه، ويستشعر احتياجات وطنه وقضاياه، في لغةٍ سلسةٍ بسيطة، موظفًا لتلك الغاية آليَّاتٍ فنيةً غير مباشرة، مثل جعله الخطاب الشعري يجري على لسان المتكلم، فيجعل الطفل القارئ وهو يقرأ بضمير المتكلم يتوحد مع الأفكار التي يرددها وكأنها تخرج من داخله، فيكون أقرب إلى تشرُّب تلك القيَم.
- امتلك الهراوي رؤية مستقبلية سياسية واجتماعي ثاقبة، فآمن بالمساواة بين الجنسين، وضرورة الأخذ بأسباب العلم الحديث، واقتران العلم والعمل، كما أنطق الفتاة التي ظل صوتها محجوبًا لقرونٍ وأتاح لصوتها مساحاتٍ واسعةً في قصائدة، أجرى فيها الخطاب الشعري على لسانها.
- كما أننا نرى أن الهراوي قد وضع في ديوانه "سمير الأطفال" التقاليد الأولى للاتجاه العلمي في أدب الأطفال، وهو الاتجاه الذي سيتطور ويتوسع مع الأجيال اللاحقة من كُتَّاب الأطفال على مدار مائة عام ويصير أحد أهم اتجاهات أدب الأطفال المعاصر، وفي تقديرنا الشخصي أن الاتجاه العلمي في أدب الأطفال من أكثر الاتجاهات المرشحة لصدارة أدب الأطفال في الفترة القادمة.

الهوامش:

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، جـ 6، ص106.

(2) ديوان إبراهيم ناجي، رثاء الشاعر محمد الهراوي، دار العودة، بيروت، 1980، ص178.

(3) محمد الهراوي، ديوان سمير الأطفال، نشيد فتيات المدارس، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1922، ص 5.

(4) الديوان، نشيد فتيات المدارس، ص7.

(5) المصدر السابق نفسه، ص6.

(6) الديوان، طفلة تتوجه إلى المدرسة، ص9.

(7) الديوان، نشيد فتيات المدرسة، ص6.

(8) الديوان، يراعتي وإبرتي، ص27.

(9) المثبنة: شنطة اليد.

(10) الديوان، فاطمة خطيبة، ص39.

(11) الديوان، فاطمة في المطبخ، ص37.

(12) الديوان، نشيد فتيات المدارس، ص7.

(13) الديوان، نشيد فتيات النيل، ص31.

(14) الديوان، المصدر السابق، ص32.

(15) المصدر السابق، ص33.

(16) نفسه، ص33.

(17) الديوان، أنشودة لعب الكرة، ص11.

(18) الديوان، أنشودة لعب الكرة، ص11.

(19) الديوان، أنشودة نط الحبل، ص14–15.

(20) الديوان، آداب البنت في الطريق، ص25.

(21) الديوان، وصف دار الآثار العربية، ص47–49.

(22) الديوان، دار الآثار المصرية، ص55.

(23) الديوان، أبي الهول، ص68.

(24) الديوان، وصف الأهرام، ص69.

(25) الديوان، وصف المِسَرَّة (التليفون)، ص59.

(26) الديوان، آيات العلم، ص79.

(27) نفسه، ص79.

(28) نفسه، ص79.